الفصل الخامس
التُهَم التى توجه للخيام: أنه إباحى، ومستهزئ بأحكام الاسلام وتعاليمه، وباطنى إلخ..

يقول أبو النصر مبشر الطرازى الحسينى فى كتاب «**كشف اللثام عن رباعيات الخيام**»:

«إن الباحثين من الشرق والغرب عرفوا الخيام عن طريق ما نسبوه إليه من رباعيات وصفوها بأنها فلسفة الخيام، فمنهم من قال إنه **أبيقورى النزعة والميول**، ومنهم من ذهب الى أنه **معرىّ المذهب**، ومنهم من رأى أنه **إباحى**، وأنه **مستهزئ بأحكام الإسلام وتعاليمه**، كما طعن فيه بعض الناس أنه **دهرى**، وزعم بعضهم أنه **تناسخى**، وظن بعضهم أنه **باطنى، ولا أدرى، وتشاؤمى، وجبرى**، وادعى البعض أنه **ثائر** على كل شئ من دين وأخلاق والعقل أيضا، وليس لهم فى كل ذلك دليل إلاّ تلك الرباعيات. وقد انخدع الباحثون والكتّاب والمترجمون بترجمة إدوارد فيتز چيرالد الشاعر الإنجليزى لتلك الرباعيات التى قام بها سنة ١٨٥٦م، ولم يفطنوا إلى الأغراض المذهبية والمكايد الاستعمارية التى لعبها أعداء الإسلام ورجال الاستعمار، والدور الخفّى الذى كان لهم فى نشر ما أسموه فلسفة الخيام، للنيل من الخيام وتعاليم الإسلام وماله من شعائر وأحكام. ونستطيع بكل جرأة وثقة أن نحكم بأن أكثرية الرباعيات موضوعة، وقد نسبوها إلى شخصية الخيام العظيمة من غير سند يُعتمد عليه، وأنها لا تتفق مع مكانة الخيام واتجاهاته ومنزلته العلمية».

ويورد الطرازى **أربعين رباعية** يترجمها على أنها لا بأس بنسبتها إلى الخيام لعدم مخالفتها مبدأه الحقيقى وعقيدته الإسلامية، ويعترف فيها الخيام بعجزه عن الكلام فى ذات الله وأسرار الأزل، ويلفت نظر الصحاب إلى الموت للتذكير والتفكر شأن أولى الألباب الذين يتفكرون فى الله «ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك»، ويدعو أصحابه إلى تناول الخمر الحقيقية فى حب الله والتوبة إليه قبل أن تغتالهم المنيّة. وقد تأوّل المغرضون هذه الرموز تأويلات فاسدة، وزادوا على الرباعيات برباعيات موضوعة.

*****

ويقول رضا **صدّيقى نخجوانى** فى كتاب «**خيام بندارى**»:

«إن مقام الحكيم عمر الخيام النيسابورى أرفع من أن تنسب إليه تلك الرباعيات المستنكرة. ولقد أوجدوا خياماً موهوماً من نسج خيالهم، ودليلنا أنه كلما طال العهد على الرباعيات كلما زاد عددها، ويُعتقد أن قائل هذه الرباعيات أشخاص مُنْحلوُن، انتحلوا رباعيات تعارض الدين، وتناقض المجتمع، ولا توافق العقل والعلم، ولا الأخلاق والتربية».

*****

ويقول **أحمد حامد الصّراف** فى كتاب «**عمر الخيام شاعر الرباعيات**»:

«إن الذى بدا لى من رباعيات الخيام أنه كان جمّ الشكوك، كثير الارتياب، عظيم الاضطراب، ذا روح قلقة تحيط بها الهواجس والخطرات، ونفس متألمة تكتنفها الوساوس والخيالات، وقد ظهرت شخصيته فى رباعياته بمظهر الشك المرتاب القلق، وذلك ما يدفع الباحث إلى الاعتقاد أنه كان متشائما فى عقيدته».

*****

ويقول **سيد قطب** فــى «**كتب وشخصيات**» فى مجال المقارنة بين الخيام وحافظ الشيرازى:

«فإن هناك اشتراكا فى الظاهر فى خصائص الشاعرين واتجاههما، ولكن ما أبعد ما بينهما فى الحقيقة. وحينما تروعك فى الرباعيات تلك اللهفة المحرقة لاستجلاء السر الأعظم الذى أوصدت دونه الأبواب، نجد الخيام يدقها دقاً عنيفا متواصلاً، فمتى كلتّ يداه وأدركه الإعياء وغشّاه الملل، جلس يغرق أشجانه فى كأس من الشراب».

*****

ويقول **عبد اللطيف الجوهرى** فى كتاب «**عمر الخيام ومسأله الرباعيات فى ضوء الإسلام**»:

«والخطأ الأكبر الذى وقع فيه المعاصرون من الباحثين والأدباء أنهم اعتبروا أن رباعيات الخيام هى لعمر بن إبراهيم الخيام فعلاً، مع أنهم جميعا يكادون يجمعون على شيئين: **الأول**: أن عمر الخيام كان حكيماً فيلسوفاً، وحجةً فى عصره، وكان يجالس الملوك، وعالماً فى الرياضة والطب والفقه، **والثانى**: أن الرباعيات أمر لا يمكن الاجتماع عليه من حيث العدد ومعرفة الصحيح منها من غير الصحيح، وجميعهم يُجمع على أن هناك رباعيات منسوبة إلى

الحكيم النيسابورى مع اختلاف التعليل لأسباب الوضع. واستخلاص الصحيح من الرباعيات، وما يمكن أن يكون للحكيم النيسابورى من عددها غير متفق عليه أيضاً، فهو بين **إحدى عشرة رباعية وسبع عشرة رباعية.**

*****

ويقول الشاعر **وديع البستانى** أول من ترجم رباعيات فيتز چيرالد الخيامية إلى العربية شعراً:

«فلا بد إذن من كلمة فى الرباعيات وتاريخها فإنها مجموعة أفكار تناقلتها العصور ولعبت بها الأغراض والأهواء كل ملعب، وقد اعتراها من الحذف والإبدال، وشابها من المتشابه والمكرر والدخيل، ما ترك أمرها مجالاً للبحث والتنقيب. ولا يذهبن عنا أن بعض الرباعيات منسوب إلى عمر الخيام وهو براءٌ منها. وبعض الرباعيات يناقض بعضه، فليس قليلاً ما تجد الرباعية الكُفرية نسبةً إلى مغزاها، تلو الرباعية الابتهالية نسبةً إلى فحواها، فتحار فى أمر الخيام، ويتراوح حكمك فيه بين النقيضين، شكه ويقينه، وكُفْره ودينه».

*****

وقال **أحمد أمين:**

إن رباعيات الخيام غنية عن التعريف فقد ترجمت إلى لغات كثيرة، بعضها ترجمات حرفية، وبعضها استوحى فيها المترجمون روح الخيام ولم يتقيدوا بمعناه كما فعل فيتز چيرالد... وترجمت إلى العربية مراراً وتقبلها الناس قبولاً حسناً لما فيها من شذوذ أحيانا، ودعوة إلى الإمعان فى اللذة أحيانا، وأنا لا أوافق على هذه الدعوة، ولا على هذا الشذوذ، لأنه كما قال الفيلسوف كَنْت: إذا أردت أن تعرف شيئا، أصحيح هو أم فاسد، فعمِّمْه». ونحن لو عممنا هذا المسلك لكان الناس كلهم إباحيين متلذذين بوهيميين ، لا يأبهون لشئ إلا الخمر والنساء. ولو تصورنا مجتمعا هذا شأنه لكان مجتمعاً منحطاً يسرع إليه الفناء. على أن الخيام نفسه قد يكون أدرك هذا المعنى فلم يحى الحياة التى دعا إليها، بل كان فقيهاً عالماً بالرياضيات ومخترعاً فيها. والمؤمن إيمانا تاماً بدعوته ليس أقل من أن يسير عليها هو نفسه. أمّا أن يكون عمله فى جانب ودعوته فى جانب، فإن دلّ على شئ فإنما يدل على عدم الإخلاص التام فى أحدهما. ولقد وقفنا كثيرا عند مهاجمته للدين وللسماء، ولعله فى ذلك مقلد **لأبى العلاء المعرى** فى لزومياته، ولكن اعتدنا أن نسمع من مشايخنا قولهم ناقل الكفر ليس

بكافر، واعتقدنا أن هذه النزعات سواء من الخيام أو من أبى العلاء لا تحدث إلا فورة وقتية لا تلبث أن تزول، وأنهما إن كَفَر لسانهما أحيانا فإن قلبهما لا يفارقه الإيمان، كالذى قيل عن هيجل الفيلسوف الألمانى الشهير أنه قد كفر عقله وآمن قلبه. ونحن فى حياتنا اليومية المشاهدة كثيراً ما نرى أفرادا متمايزين يؤمنون كل الإيمان، ولكن قد تحدث لهم فورة وقتية بسبب حدوث كارثة فظيعة لهم، أو نزول مصيبة فادحة فى أموالهم أو أنفسهم أو نحوذلك، فيجانبهم الإيمان فى تلك اللحظة، ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى إيمانهم. فلعل الخيام كان من هذا القبيل، وجد الحياة كلها بؤساً وغماً، ووجد الناس كالكلاب ينهش بعضهم بعضا، ووجد عاقلا بائسا وأحمق غنياً، فلم يجد مخرجاً له إلا الزندقة أحيانا، ثم تهدأ ثورته فيعود إلى دينه. ولقد صدق عمرو بن العاص إذ قال: ليس العاقل من لم يعرف الشر من الخير، وإنما العاقل من عرف الخير والشر، ثم تجنّب الشر». فلا بأس أن يُفرض على أنظارنا خير وشر، بل لا بأس أن يُعرض على أنظارنا خير كثير وشر كثير، فنفعل الخير عن علم، ونتجنب الشر عن علم.

*****

وبعد....

...فمما لا شك فيه أن بعض الرباعيات منحولة على الخيام، وهذا البعض هو ما لايتوافق مع فلسفته التى عرضنا لها فى رسالاته الأربع، وكما يقول إرنست رينان (١٨٦٨م): إن الذى يوقع المطالعين لرباعيات الخيام فى شك منها، هو صدور تلك الرباعيات ورواجها فى بلاد محكومة بالدين الإسلامى. ولا يوجد كتاب فى بلاد أوروبا ينفى العقيدة المذهبية الشائعة بل جميع المعتقدات الأخلاقية، بمثل هذا الطعن والاستهزاء الشديد!!

*****

(١)
تهمة الباطنية

كانت الباطنية التى اتهم بها الخيام نتيجة رباعيات كهذه:

قد كان يدرى الله كل فعالنا
من يوم صوّر طِيننا وبرانا
لم نرتكب ذنباً بدون قضائه
فإذاً لماذا ندخل النيرانا؟

وإننا لنبحث فى تاريخ الباطنية وفلسفاتها عما يمكن أن يشابه **مقولات الخيام الفلسفية فى الرسائل** فلا نجد، وعلى العكس نجد تطابقاً تاما بين مقولات الباطنية **وبعض الرباعيات**، وكأن هذه الرباعيات قد صيغت تماما على منوالها كما لو كانت تطبيقات شعرية لها، ومع ذلك فلسنا نجد للخيام شاعرية فيها، على نقيض الرباعيات التى فيها يشكو همومه الوجودية ويُبين عن جزعه وقلقه.

والباطنية اسم مشترك لعدد من المذاهب يجمع بينها أنها تأخذ بتأويل النصوص الدينية كما لو كانت رموزا وإشارات لها **ظاهر** يقنع به العامة، **وباطن** ينفذ إليه أهل علم الباطن. وقد استقرى الإمام الغزالى تحت هذا الاسم **القرامطة** أصحاب حمدان قَرْمَط، **والخرمية** نسبة إلى حاصل مذهبهم وهو الخرَّم الفارسية بمعنى الشئ المستلذ، فهم أصحاب مذهب اللذة، **والبابكية** نسبة إلى بابك الخرّمىّ، **والاسماعيلية** نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق سابع الأئمة، **والسبعية** الذين يقولون بأن أدوار الإمام سبعة، وتدابير العالم السفلى المنوطة بالكواكب سبعة، **والمُحَمّرة** لصبغهم ثيابهم بالحمرة تمييزاً لأنفسهم، **والتعليمية** الذين يبطلون الرأى ويدعون إلى التعلم عن الإمام. ويقوم كتاب **على دشتى** عن الخيام على الدفاع عن التأويل كظاهرة عِرقية عند الفرس حيث كانوا أمة متحضرة أخذت بالإسلام، فكان عليها أن تخرج على قيود النصوص رغبةً فى تعميق صريحها ومجالات تطبيقها.

ويبدو أن الأخذ بالتأويل بدأ فى الإسلام مع السبأية التى أسسها عبد الله بن سبأ اليهودى، ويقولون بأن علىّ بن أبى طالب وصى الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه لم يُقتل بل توارى وسيرجع. وقال اللاحقون عليه بالتناسخ، بانتقال الأرواح المطيعة إلى أبدان طاهرة، والأرواح الشريرة العاصية إلى أبدان نجسة، وأسرفوا فى القول بالأدوار، وأبطلوا الشرائع والقول بالجنة والنار، وأباحوا الفروج كلها، وأبطلوا النكاح والطلاق.

وقيل إن ظهور الباطنية فى عهد الدولة السلجوقية كان ابتداؤه فى سجن والى بغداد حيث اجتمع فيه جماعة منهم دبّروا لدعوتهم وقالوا بالاستتار، وبنوا مزاعمهم على فِكْر شديد التطرف،وعلى التآمر العسكرى لقلب أنظمة الحكم، وقالوا إن الأنبياء كلهم ممخرقون ومنمسون (يقال نمس عليه الأمر أى لبس عليه)، ووضعوا برنامجا للدعوة تنتظمه تسع مراتب هى الزرق والتفرس، ثم التأنيس، ثم التشكيك، ثم التعليق، ثم الربط، ثم التدليس، ثم التلبيس، ثم الخلع، ثم السلخ. فأما **الزرق والتفرس** فهما تمييز من يمكن أن يُستدرج إلى المذهب ويتأثر بما يقال له، والتمويه عليه بما يحب والدخول عليه من ناحية طباعه، **والتأنيس**

هو موافقة المدعو إلى غراداته بممالأته، **والتشكيك** هو تغيير اعتقاد المستجيب بزلزلة عقيدته فى حكمة مقررات الشريعة وأحكامها ونظام الكون، **والتعليق** هو ترك المستجيب فى حيرته، **والربط** هو أخذ العهد عليه بالأيمان المغلّظة، **والتدليس** بالاحتيال عليه لإبطال ظاهر القرآن والاقتناع بأن له باطنا، **والتلبيس** هو مواطئته على مقدمات مقبولة ثم يستدرجه منها إلى نتائج باطلة، وأخيرا **الخلع والسلخ** بمعنى ترك حدود الشرع وتكاليفه والانسلاخ عن الدين بالكلية وهذه رتبة البلاغ الأكبر.

وهذه الخطوات مهمة جداً حيث نجد الرباعيات المنحولة على الخيام تأخذ بها وتسير على منوالها وتهدف إلى نفس أهدافها وتتوسل بنفس وسائلها فى التشكيك والإقناع والانخلاع عن الدين.

ويلخص **الإمام الغزالى** الأسباب التى أدّت إلى انتشار هذه الدعوة فى أوساط العامة، والمثقفين بخاصة الذين لهم إنتاجيات أدبية وفكرية ذات قيمة كالفلاسفة والشعراء، أن مبادئها كانت مناسبة لكلٍ ولم تكن تكلفهم شيئا، وعلى العكس كانت تَعِدهم بإلغاء التكاليف عنهم، ولم يكن ينخدع بها إلاّ المائلون عن اعتدال الحال واستقامة الرأى، وهم إمّا ضعاف العقول الذين جُبلوا على البلَه والبلادة مثل السواد الأعظم من أفجاج العرب والأكراد وجفاة الأعاجم وسفهاء الأحداث، وإمّا طائفة انقطعت الدولة عن أسلافهم بدولة الإسلام كأبناء الأكاسرة والدهاقين وأولاد المجوس فهم موتورون حاقدون، وإمّا طائفة طامعة إلى العلياء ومتطلعة إلى التسلط والاستيلاء، وإمّا طائفة جُبلوا على حب التميز عن العامة والتخصص عنهم، وإمّا طائفة سلكوا طرق النظر ولم يستكملوا فيه رتبة الاستقلال وإن كانوا قد تَرّقوا عن رتبة الجهّال، كأن يعتقدوا محض الكفر تقليداً لأفلاطون وأرسطو، وداعيهم إلى هذا هو التقليد، وإمّا طائفة تستأنس بالشيعة وتنجّر معهم وتعتقد التدين بِسَبّ الصحابة، وإمّا طائفة من مُلحدة الفلاسفة والثنوية والمتحيرة فى الدين اعتقدوا أن الشرائع نواميس مؤلفة والمعجزات مخاريق، وإمّا طائفة استولت عليهم الشهوات فاستدرجتهم الدعوة إلى متابعة اللذّات.

وتتعلق الدعوة الباطنية **بالإلهيات والنبوات والإمامة والحشر والنشر**، فقالوا بإلهين قديميين، سابقٍ وتالٍ، والسابق المعلول، والتالى خلَقَ العالم، والأول هو العقل، والثانى هو النفس، والأول تام بالفعل، والثانى بالإضافة إليه ناقص، واستشهدوا بالآيات «إنّا نحن نزلنا» «ونحن قسمنا» على صورة **الجمع**، «وسبح اسم ربك الأعلى» على **علو** أحدهما عن الآخر. وقالوا السابق لا يوصف بوجود ولا عدم فإن العدم نفى والوجود سببه، فلا هو موجود ولا هو

معدوم، ولا هو موصوف ولا غير موصوف، وكل الأسامى منتفية عنه، وكأنهم يتطلعون فى الجملة إلى نفى الصانع، وسمّوا النفى تنزيهاً.

وأبطلوا **الرأى**، ودعوا إلى التعلم عن الإمام المعصوم بلا مناقشة. وقالوا فى النبى إنه شخص فاضت عليه من السابق بواسطة التالى، أى جبريل، قوة قدسية قابلة للانتقاش عليها بكلام الله، وتسميته بالكلام مجاز، لأنه قد فاض عليه من جبريل بسيطاً لا تركيب فيه، وباطناً لاظهور له، وكلام النبى وتعبيره عنه هو الظهور الذى لابطون له. وتنتقل القوة القدسية الفائضة إلى النبى من الرسول الناطق إلى الأساس الصامت، ثم من شخص إلى شخص إلى أن تصل الأئمة المعصومين القائمين بالحق، وهؤلاء يستظهرون بالحُجج والمأذونين والأجنحة، والحُجة هو الداعى، والمأذون هو المعاون له، والجناح هو رسوله المبلّغ عنه.

وأنكروا **القيامة**، فالوجود له أطوار من ليل ثم نهار، والإنسان له أطوار من نطفة إلى الشيخوخة، وكذلك الحيوان والنبات، وهذا النظام لا يتوقف أبد الدهر، ولايُتصور انعدام أجسام السموات والأرض. وأوّلوا القيامة فقالوا هى خروج الإمام وقيام قائم الزمان وهو الناسخ للشرع والمغيّر للأمر، ومعنى القيامة انقضاء الدور الحالى.

وأنكروا **المعاد**، ولم يثبتوا الحشر والنشر للأجساد، ولا الجنة والنار، وإنما معنى المعاد عودُ كل شئ إلى أصله، فالإنسان فيه جسمانى وروحانى، فيعود جسمه إلى عناصر التراب والهواء، وأما الروحانى فإنها إنْ صفت فارقت إلى أصلها فتسعد بذلك وهذا هو الرجوع، فقيل «إرجعى إلى ربك راضية مرضية»، وهى الجنة.

وزعموا أن كمال النفس بموتها لخلاصها من ضيق الجسد والعالم الجسمانى، فإذا استعدّت لفيض العلوم الروحانية باكتساب العلوم من الأئمة وسلوك طرقها المفيدة بإرشادهم، استكملت عند مفارقة الجسد، وظهر لها ما لم يظهر، ولذلك قال عليه السلام «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا». وكلما ازدادت النفس عن عالم الحسيات بُعداً ازدادت للعلوم الروحانية استعدادا، وكذلك إذا ركدت الحواس بالنوم اطّلعت على عالم الغيب واستشعرت ما سيظهر فى المستقبل، إمّا بعينه فيغنى عن المعبر، أو بمثال فيحتاج إلى التعبير، فالنوم أخو الموت، وفيه يظهر علم لم يكن فى اليقظة، فكذا بالموت تنكشف أمور لم تخطر على قلب بشر فى الحياة، وهذا للنفوس التى قدّستها الرياضة العملية والعلمية. فأمّا النفوس المنكوسة المغمورة فى عالم الطبيعة، المُعْرِضة عن رشدها من الأئمة المعصومين، فإنها تبقى أبد الدهر فى النار،

على معنى أنها تبقى فى العالم الجسمانى تتناسخها الأبدان، فلا تزال تتعرض فيها للآلام والأسقام، فلا تفارق جسداً إلاّ ويتلقاها آخر، ولذلك قال تعالى «كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها لينوقوا العذاب». فهذا مذهبهم فى المعاد، وهو مذهب الفلاسفة، انتصر له كل واحد بما يوافق سابق معتقداته، فصار أكثر مذهبهم موافقا للثنوية والفلاسفة فى الباطن، وللشيعة فى الظاهر، وغرضهم بهذه المعتقدات انتزاع المعتقدات الظاهرة من نفوس الخلق.

هذا هو موجز مذهب الباطنية، وكأنما الكثير من رباعيات الخيام التى نشرها فيتز چيرالد وترجمها عنه البستانى والنّشار والسباعى وغيرهم تطبيقات للدعوة الباطنية، سواء بالسخرية من الدين الإسلامى والاستهزاء بأحكامه، أو بالاستخفاف بالجنه والنار، والحور وجنان الخمر، والولدان يطوفون بالكؤوس، واللذة للشاربين والآكلين، والحساب والنشور.

ويقول **أحمد حامد الصراف**: ومن يدقق النظر فى رباعيات الخيام (يقصد طبعا بعض الرباعيات) يجد أنها تتضمن جميع هذه المبادئ إلاّ ما كان من أمر النبوات والمعجزات والوحى. والظاهر أن الخيام كان يتجنب مهاجمتها خوفاً على حياته، وابتعاداً من تعريض نفسه للمخاطر. وأما اجتراؤه على إباحة الخمر والملذات، والقول بِقَدم العالم من طرف خفى، وإبطال القول بالمعاد والنشر، وانكار الجنة والنار، فلأنه محتمل التأويل على طريقة الصوفية خصوصاً التغزل بالخمر التى قالوا فى تأويلها إنها خمرة الحب الإلهى، وفى السُكْر أنه السكر المقدّس، فقلبوا معانى الرباعيات الى معانى صوفية كما يقول المؤرخ القفطى ويستخلص الصرّاف أن الخيام «تأثر بالباطنية تأثرا قويا، وتكاد رباعياته تسوق إلى الاعتقاد بأنه كان من أعظم المبشرين بتلك المبادئ الهّدامة، ومن أشد المناصرين لها، ولعله كان من دعاتهم».

وأنا مع الصرّاف لو كانت الرباعيات التى تَشكك هو نفسه فى حقيقة نسبتها إلى الخيام صحيحة غير منحولة عليه، ولكن ما الرأى لو كانت رسائله الفلسفية تدحضها وتناقض كل ما جاء عند الباطنية من مبادئ؟ وفلسفة الخيام فى الرسائل فى الإلهيات تقوم على:

١- إيجاب الوجود لله تعالى، وإيجاب الأسماء والصفات التى له جميعها.

٢- والإقرار بالنبّوة ورسالة النبى ولزومها لصلاح العالم.

٣- والالتزام بالشريعة والإقرار بها لصالح الاجتماع الإنسانى.

٤- ولزوم التربية الدينية من أجل التنشئة الصالحة.

٥- والإقرار بالجنة والنار والثواب والعقاب.

٦- والإقرار بالمعاد والقيامة والبعث والحساب.

وإذن لا يمكن أن يكون الخيام باطنياً، ولا يمكن أن تحُسب عليه الرباعيات التى فيها الكثير من الفكر أو التعليم الباطنى. ولم يكن من المتأثرين بالباطنية التى كانت تزاحم الناس حياتهم الثقافية فى فارس وغيرها. ولا ينبغى أيضا أن ننسى أن الباطنية شيعة، والخيام سُنّى، ولا يجب بأى حال من الأحوال أن يغيب عن بالنا للحظة أن اسمه السّنى «عمر» هو اسم يكرهه الشيعة حتى النخاع!

ورغم أن المراجع قد أوردت قصة له مع المدعو حسن بن الصباح المتآمر الباطنى الأحمر حيث كانا يدرسان سويا والوزير نظام الملك فى مدرسة الشيخ موفق، إلا أن تأثير الصباح على الخيام لا يمكن أن يكون التأثير الإيجابى الذى يطمح اليه المدلّسون، فالشخصيتان منفرقتان تماما، والخيام فيلسوف وشاعر، والصباح عسكرى متآمر وداعية سياسى. ولكم أختلفُ مع الدكتور مصطفى غالب صاحب كتاب «الثائر الأحمر حسن بن الصباح»، ولكم تعجبت من الهَوىَ كيف يحرك الأقلام فتحيد عن الحق، وكيف يزوّر الحقائق ويشوه التفكير والوجدان، فتلتبس الأمور ويظهر الحق باطلا والباطل كالحق، وأنا أقرأ للدكتور غالب نَعْيه على عصر الخيام أنه العصر الذى أنتج الغزالى الإمام ونظام الملك الوزير! ولما أراد الدكتور أن يشرح بعض المفاهيم الباطنية عند الاسماعلية تاه عن القصد، وتردّى فى متاهات الشطح والخرافة، وكان أبعد ما يكون عن الفلسفة!

*****

(٢)

نماذج من رباعيات باطنية منحولة على الخيام نظمها الصافى النجفى

* فى الخطيئة المقدورة والجور الإلهى:

إلـهى قـل لـى من خلا من خطـيئة؟
وكيف تُرى عاش البرئ من الذنب؟
إذا كـنت تجـزى الذنب منـى بمثله
فما الفرق ما بينى وبينك يا ربـى؟

*****

* فى عدمية الحياة والفكر:

يا باقــياً رهن الريـاء ورائحا
لـتصـير عيشك فى عناء متعــب.
أتقول أين تروح من بعد الـرَدَى؟
هات المُدام وأين ما شئت اذهب!

*****

* فى القضاء والقدر:

غَدَوْنـا لدى الأفـلاك ألـعاب لاعـب!
أقول مـقـالاً لسـت فيه بـكـاذب -
على نطْع هذا الكون قد لَعَبتْ بـنـاء
وعــدنا لـصندوق الـفَنَا بالتعاقب!

*****

* فى الجنة والحور وطلب الثواب فى الأرض القريبة لاالجنة البعيدة:

قال قومٌ ما أطْـيب الحور فى الجنـ
ـة! قـلـتُ المــُدام عــنـدى أطيب!
فاغنم الـنَقْد، واترك الدَّين، واعلم
أن صــوت الـطبول فى البُعد أعذب

*****

* فى استواء الأيام ولا قدسية بعضها:

إنْ تـشربْ المدُام أسبوعاً فلا
تدع لدى الجمعة قُدساً شُرْبها.
السبتُ والجمعةُ عندى استويا -
لا تـعــبد الأيام واعبد ربـهـا!

*****

* فى الحانة كمحل عبادة لإله الخمر:

هـذا أوان الـصـبوح والطـرَب،
ونـحـن والـحان وابـنة الـعـنـب.
أصمُت نـديمى – هل ذا محل تُقًى؟
واشرب وخَلِّ الـحديث واجتنب!

*****

* فى التوبة واستواء قبولها وعدمه:

لا عـشـتُ إلاّ بـالـغوانى مغرما،
وعلى يدىّ تِبْر المُدام الـذائب.
قالوا سـيَقْبَلُ مـنك ربك تـوبة –
لا اللـه قـابـلـهـا ولا أنـا تـائب!

*****

* فى أن الإنسان خُلِق على أحسن صورة ثم ينقض الرب الصورة:

لمـاذا غـداةَ الـربُّ ركّـب هـذه الـ
عناصر؟ لم يُحكِم تـناسبها الرب!
إذا راق مـبـنـاهـا فـفـيم خـرابـهـا؟
وإن لم تَرُقْ مبنىً – فممن أتى العَيب؟

*****

* فى الخبر الذى يقول إننا نبعث على ما كنا عليه – إذن اختار الخمر والحبيبة أموت عليهما لأبعث عليهما:

يقول المتـقـون غـداً سـتـحـيا
عـلـى مـا كـنتَ فى هذه الحياة.
لـذا اخـتـرت الحبيبة والـحُمـيّا،
لأحـشـر هـكـذا بعـد الممـات!

obeikandi.com

* فى عدم جدوى التفكير والعجز عن حل لغز الوجود، وأن الموت هو الحقيقة:

إن الألى بلغوا الكمال وأصبحوا
ما بين صحبهم سراج النادى.
لم يكشفوا حلَكَ الدياجى بل حكوا
أسطورةً ثم انثنوا لرقاد!

*****

* فى السخرية من رمضان:

قد قيل لى رمضان جاء، فسوف لا
تسطيع رشفاً لابنة العنقود
فساحتسى بختام شعبان الطِلا
هَلاً لتصرعنى ليوم العيد!

*****

* فى عبثية الأخذ بالدين:

سعى لقصور الخلد والحور معشرٌ
وران فريقاً بالجزاف قد اغتّرا.
سيبدو لهم إنْ ينجل السِتر أنهم
نأوْا عنك أقصى النأى فى ذلك المسرىَ!

*****

* فى أن الجنة فيها أنهار العسل والخمر، وفيها الكوثر والحور فلماذا هى حلال هناك وحرام هنا؟ أعطنى ثوابى نقداً الآن أفضل:

قيل خُلْدٌ غداً وحور وكوثر،
أنْهُرٌ من طِلا وشهْدٌ وسكّرا
فَعلّى ذكرها أدِر لى كأسا -
إنّ نقداً مِن ألف دَيْن لأجدر!

*****

* نفس المعنى السابق:

يقولون حورٌ فى الغداة وجنة،
وثمة أنهار من الشَّهْد والخمر.
إذا اخترتُ حوراء هنا ومُدامة
فما البأس فى ذا وهو عاقبة الأمر؟

*****

* لماذا يخلق الله الجمال ثم يحطمه:

هل الجام مهما تَّم صُنْعاً ودقة
يرى كَسْرَهُ مَنْ كان منتشياً سُكْرا؟
ففيم برَى الخلاّق ساقا لطيفة
ورأساً وكفاً ثم يكسرها كسْرا؟

*****

* فى أن هذا الكون مستعبد، ولو كان الأمر بيدى لخلقته أفضل حسب مشيئةالأحرار:

لو كان لى كالله فى فلكٍ يد
لم أبق للأفلاك من آثار!
وخلقتُ أفلاكاً تدور مكانها
وتسير حسْبَ مشيئة الأحرار!

*****

* يسأل الله هل تزيد طاعته له من ملكه، وهل تنقص خطاياه من قدره؟ ويأخذ على الله البطء فى الاستجابة كلما دعاه:

سألتك هل زادت بمُلكك طاعتى
وهل أنقصت منه خطاياى من قَدْر؟

obeikandl.com

فدعني ودع نصرى فطبعك بان لى
سريعٌ لخذلانٍ بطيءٌ عن النصر!!

*****

ألا قُمْ لنحسوها ونُعمِلُ عُودَنا
ونُبدِل حُسْنَ الصيت بالعار والرجس!
وَدَعْنا نَبِعْ بالكأس سجادةَ التُّقى
ونكسرْ فوق الصخر قارورةَ القُدس!

*****

إذا ما أتينا خاشعين لمسجد
فلم نأت نقضى للصلاة فروضَها
ولكنْ سرقنا منه سجادةً، ومُذ
عَرَاهَا البِلَى جئنا لكى نستعيضَها!!

*****

(٣)

تهمة الإباحية أو الخلاعة

الإباحية دعوة لها فلسفتها، وأصحابها من المبطلة، قالوا ليس لنا قدرة على اجتناب المعاصى، ولا على الإتيان بالمأمورات، وليس لأحد فى هذا العالم مِلْك رقبة، ولا ملك يد، والجميع مشتركون فى الأموال والأزواج.

وتسميتهم **بالمبطلة** لأنهم أبطلوا جميع الشرائع والعبادات، وحللوا كل ما حَرّم الله فى كتابه وعلى لسان نبيّه، وقالوا إن كل ما أنكره أهل الجحود مباحٌ لهم، وأن ما أمَرَ به الله من صلاة وزكاة وحج وصوم وعبادة هى آصار وأغلال، فهى على أهل الجحود دونهم عقوبة لهم، وأن **المحرمات** من الزنا والخمر والربا والسرقة واللواط وكل الكبائر، وكذلك الوضوء وغُسل الجنابة والتيمم – كل ذلك هو اجتناب رجال ونساء وتوليتهم، فإذا حَرَّمْتَ على نفسك توليتهم واجتنابهم فقد اجتنبت ما حَرّم الله عليك. وأباحوا الفروج كلها، وزعموا أن **النكاح** باطُنه

مواصلة أخيك المؤمن، فإذا وصلتُه فقد نكحته. **والصداق** أن تطلع أخاك المؤمن على ما عندك من العلم والمعرفة. والطلاق أن تعتزل أضدادك فلا تطلعهم على أمرك. **والمرأة** بمنزلة الريحانة تخلعها متى شئت، وإذا شممتها فقد حييت بها أخاك المؤمن.

هؤلاء هم إباحية المسلمين، وتلك طريقتهم، وكأن الإباحية طريقة فى أخذ الدين، أو فى التصوف. والإباحيون يطلقون على أعضاء جماعتهم اسم **الإخوة المؤمنون**، ويتحدثون فى الإباحية حديثاً يُدخلون فيه الدين، ويتكلمون على أخص علاقة بين المرأة والرجل فيستخدمون فيها المصطلحات الشرعية، وكأنما الإباحية مدرسة فى التفكير ومنهج سلوكى. فهل من ذلك شىء فى هذه الرباعيات المنسوبة للخيام؟ يقول:

جاء من حانتنا النداء سُحَيْراً
يا خليعاً قد هام بالحانات
قُمْ لكى نملأ الكؤوس مُداماً
قبل أن تمتلىء كؤوس الحياة

ويصف منتحل هذا الشعر نفسه بأنه **خليع** ويضيف نفسه إلى الحانات – **خليع الحانات** – ثم يقول مخاطباً القارئ:

ما استطعتَ كن لبنى الخلاعة تابعاً
واهدم بناء الصوم والصلوات
واسمع عن الخيام خير مقالة
إشرب وغنّ وسِرّ إلى الخيّرات

ورغم أنه يجعل من الخلاعة فرقة يسميها **بنى الخلاعة** إلا أنه لا يتحدث عنها كمذهب، وإنما كسلوك قوامه: الشرب والغناء، والتردد على الخيّرات ويقصد بهن الخيرّات الحسان فى سورة الرحمن سخريةً بالقرآن!

هذه هى الإباحية فى الرباعيات، وأما الإباحية التى وصف بها النقاد الخيام فهى أكبر من ذلك، لأنها مذهب وطريقة فى التفكير والسلوك تتناول حتى الإلهيات. وهذه الرباعيات المنسوبة له، لا ترقى كما ترى حتى أن توصف بأنها شعر، وإنما غاية ما تقصد إليه هو أن تكون منصرفاًمن منصرفات الخلاعة، مجاله إدمان الخمر تقول:

نعم إنّا من راح المجوس بنشوة
وَصَبٌّ خليعٌ لم أزل مُدمن الراح

ولو قارنا فلسفة الخيام فى رسالته **حكْمة الخَلْق والتكليف** بمذهب الإباحية فلن نجد أن الخيام يمكن أن يندرج تحت وصف الإباحى. وكيف يوصف بالإباحية من يظْهر مثل هذا الالتزام الدينى والأخلاقى الذى يبين بجلاء ووضوح من ثنايا الرسالة؟ فالإنسان كما يرى الخيام لم يُخلق عبثاً، وكل فرد فى مجتمع الإسلام منوط به عمل، والأخلاق عماد الاجتماع، والشريعة هى السداة واللحمة، ولكى تكون للشريعة قداستها لابد أن يكون مصدرها الله تعالى، وهو الواجب الوجود، والإيمان به ضرورة فلسفية وعملية.

فهل مثل هذا الفليسوف يمكن أن يكون هو نفسه هذا الخليع كما يدعو نفسه الذى انتسابه لبنى الخلاعة دون بقية بنى البشر؟!

ثم ما هى القيمة الأدبية لأمثال هذه الرباعيات المنسوبة للخيام؟ ما هو الجديد الذى تضيفه؟ أو ما هى الصور الشعرية التى تقدمها وتستحق بسببها أن تترجم إلى كل اللغات؟

يقول **الشاعر الألمانى هيلدرلن** إن قرض الشعر هو أوفر الأعمال حظاً من البراءة. والبراءة التى يقصد إليها والتى يمكن أن تكون للشاعر هى البراءة الأخلاقية، بمعنى أن الشاعر لا يمكن أن يكون شاعراً ولا أخلاقياً. ويعلق الفليسوف الوجودى **مارتن هايدجر** على مقالة هيلدرلن فيقول الشعر مجاله المحبة، والشاعر موجود إنسانى يتدثر بالاحتشام، لأنه من أحرص الناس على وجوده. والشاعر يحافظ على روح الشعر كمحافظته على روحه. وفى محافظته على هذه الروح كما تحافظ الكاهنة على النار المقدسة يكمن نكاؤه. ولهذا مُنحت له حرية الاختيار، والقدرة على التنظيم، وعلى الإنجاز، لأنه كخالق كأنه إله. والموجود الإنسانى أُعطىَ اللغة وهى أخطر ما أُعطى من النِعَم، واختُص الشاعر أكثر ما اختُص بنعمة اللغة، لأنه يخلق بها، ولأنه يشهد بشعره على ما هو موجود، ويحافظ به على ما هو قائم، بالمحبة التى هى أعظم ما يمكن أن يحفظ الحياة!!

فهل هذا الشعر من ذلك؟ وهل كان يستحق هذه الضجة التى أثيرت حوله؟ ثم ألا يتوجب علينا قبل ترجمته وبذل العناء من أجل نشره أن نسأل لماذا هذه الرباعيات بالذات دون كل رباعيات الشعر الفارسى التى – بإقرار الجميع شرقاً وغرباً – هى من أعظم الشعر الذى يمكن أن يُنشد لشاعر؟ رباعيات أبى سعيد بن أبى الخير، والشيخ عبد الله الأنصارى وبابا

obeikandi.com

طاهر الهمدانى. وفى فن الغزل هناك السنائى وجلال الدين الرومى والحافظ الشيرازى والجامى. وفى فن المثنوى هناك الفردوسى والنظامى والعطار والسعدى! هناك الكثير... العظيم والجليل، والجميل والسامى، الذى يستحق الترجمة والنشر، فلماذا الإصرار على هذه الرباعيات بالذات؟!

*****

(٤)

تهمة الأبيقورية

ينفى الأديب المازنى عن الخيام فى كتابه **حصاد الهشيم** فى مقال بعنوان «التصوف والأدب» – أن يكون الخيام أبيقوريا، ولكنه نفىٌ من منطلق مختلف عن منطلقنا، فيقول: إن أبيقور لم ينكر الآلهة وإنما استنكر أن يكون لها دخل فى أمور تسيير الكون. وهى ليست نفسها إلا نتائج نظام الطبيعة، أى ليست سوى نوع راق من الإنسانية، ولا يقلل ذلك من شأنها ولا من إجلالها، لأنها فى المقام الأول مُثُل عليا تُحتذَى، وأحوالها من النعيم الذى يُرتَجَى. والتواصل بها لا ينبغى إذن أن يكون الباعث عليه الخوف ولا حتى الأمل. والخيام نقيض ذلك لأنه يقول بالقضاء والقدر، وأن القلم قد جرى بهما منذ الأزل وإلى الأبد:

أبداً يسطر ما شاء القلم * ثم يمضى نافذ الحكم أصم!
ليس يمحو نصف سطر ورع * لا، ولا يغسله دمع سجم!

ويقول المازنى بأن أبيقور يرفض نظرية القضاء المحتوم والنظام المقدرّ الذى على الإنسان امتثاله والإذعان له. ويرفض الضرورة ويقول بالاستطاعه للإنسان، وبأنه يمكنه أن يعيش إلهاً بين البشر، على عكس الخيام الذى قال بالجبر وأن الإنسان كرةً فى يد المقادير، إلاّ أنهما – أبيقور – والخيام – اتفقا على أن الإنسان إذا مات وفنى وانقضى أمره فلا بعث ولا حساب. يقول الخيام:

عُدت بالكأس لعلّى بفمى * أستقى سرّ الحياة الأعظم
فأسرّت شفة الكأس: ارتشف! * ما لمَيْت رجعة من عدم!

ويقطع المازنى بلا علمية مذهب أبيقور، ويرجع الخطأ فيه إلى عجز صاحبه أن يهتدى إلى الانتظام فى الكون والارتباط بين ظواهره، وأما فلسفة أبيقور الأخلاقية فهى ضرب ملطف من

الهيدونيزم، أى المذهب الذى يقول إن السعادة هى الخير فى الحياة، وهى نتيجة منطقية لعقيدته، بيد أنه لم يدع قط إلى الشهوانية الصريحة، وإنما فعل ذلك أتباعه حتى صارت الأبيقورية والشهوانية الإباحية مترادفتين. وليست اللذه عنده ما يقتنصه المرء من متع الساعة الحاضرة، بل هى أقرب أن تكون عادة من عادات الفكر تلازم المرء، وحالة سلبية لا إيجابية ولا فعالّة، أشبه بالسكون والاطمئنان منها بالاستمتاع. ومحك الاستمتاع عند أبيقور هو زوال كل دواعى الألم، وتحرر الجسم منه، واستراحة العقل من التعب، فكأن السعادة عند أبيقور لذة جليلة رزينة – راحة قلب وخلو بال وانتفاء للآلام. ويتساءل المازنى: فأين هذا من الخيام؟ إنه رجل لا يستقر على حال من القلق والتبرم، ومن التساؤل والتفكير. لا البحث يهديه ولا الكأس تسليه، ولا الكتاب والرغيف وزق الخمر وغير ذلك بمؤتيه راحة النفس وفراغ الفؤاد وانتفاء الآلام. ولقد صار الموت عنده خاطراً مخامراً ينغّص عليه كل لذة ويكدّر صفو كل نعيم. والفزع من الموت هو أساس تفكيره والذى تقوم عليه كل نظراته. ومن ذا الذى يقرأ له هذه الصرخة الخارجة من أعماق قلبه ويخطر له بعدها أن يستشعر الراحة لحظة واحدة؟

إيه أمهلنى بصحراء البيود * أتــذوق ســر يـنبوع الـوجــود
أفل النجم. مضى الركب إلى * فجر لا شئ – فعجّل يامجـود !

(والمجود هو الظمآن). والخيام قد يمزح ويتهكم:

يا أخلائى لقد كنتم شهودى * حين دار القصفُ فى عرسى الجديد
طلّق العقــل عقيماً وغدت * بنتُ هذا الكرم زوجى وعقــيدى

ولكنه تهكم الموجع الذى لم يهتد إلى شئ، ولم يحل لغزاً واحدا، وسخرية اليائس الذى لا يرى إلا رحى تدور على الناس بالإرداء (يعنى الموت)، وضحك الساخط على عجزه عن تخليص رجلْيه من شباك الأقدار، وعن لمح بارقة واحدة تجلو له بعض ما خبّأه الغد، ومزْحُ الآسف لاضطراره أن يرتد إلى اليوم الزائل حتى ليتمنى أن يقف على سر نظام هذا الكون ليمزقه ثم يعود فيصبه فى قالب أدنى إلى رغبة قلبه وهَوَى نفسه.

وعند أبيقور طالب السعادة عليه أن يروض نفسه على توخى الحكمة واستهداء الحزم فى الموازنة بين اللذات والآلام المقدرة، وأن يتلمس طريق الاستمتاع، ويخطو فيه بحذر، ولهذا كان الحزم عند أبيقور أسمى الصفات وأساس الفضائل، وقوةً أنفَس من الفلسفة، وهو ضرورى فى التماس الملاذ وتحرّى نظام الحياة. ومع أن الإحساس عنده هو واسطة التمييز بين الخير

والشر، إلا أنه يخضع للعقل ويدع له الفصل فى قيم اللذات بغية الفوز بهدوء النفس والجسم وراحة العقل. وأما عند الخيام فالعقل لا يغنى الإنسان شيئا لأنه كفيف أعمى:

صحت حيران بأجواز السماء * أى نبراس به يهدى القضاء

صبيةٌ تعثر فى هذى الدجى؟ * فأجابتنى «بمكفوف الذكاء»؟

هذا هو رأى المازنى إذن فى قضية أبيقوريه الخيام: **النفى التام أن الخيام أبيقورى.**

*****

وأعظم من ذلك فى رأيى أن المازنى يُقدّم تحليلاً رائعا للخيام كشاعر وجودى ويصفه كإنسان موجود بالقلق والهَمّ والتفكير – وموجود بأن يعيش حياته كسيسيف فى الأسطورة، رضى أم لم يرض. والمازنى إذن يتفق معى فى **وجودية الخيام**. وكثيرون معى يوافقون على **أن الخيام وجودى**، وسيرد ذلك إن شاء الله فى الفصول اللاحقة – إلاّ أن المازنى لم ير كما أرى: أن الخيام قد حلّ إشكال وجوده الأسيان بالفن ووجد الخلاص لنفسه فى فن الشعر دون بقية الفنون. وتوقُّفُ المازنى عند صورة الخيام لدى فيتز چيرالد: أن الخلاص بالخمر! – أقول توقف المازنى يجعلنا نفكر ونسأل لماذا اختيار فيتز چيرالد أو المازنى لهذه الصورة العادية للخيام، ولهذا الحل المبتذل؟! وهى صورة لا يمكن أن تكون للخيام الفليسوف، حجة الحق، وسيد الحكماء!! ولا يمكن أن تكون الخمر هى الحلّ الذى قد اهتدى إليه علاّمة الزمان والرياضى الفذ والفلكى النابغة!! ولا يمكن أن يكون السُكْر هو رسالة الخيام التى يهديها للأجيال وللبشرية، والحل الذى تفتقّ عنه ذهنه لمعادلة الوجود الصعبة!

وأبيقور الذى تُنسب إليه الخيامية – فى ظنى– على عكس ما يرى المازنى – يشبه الخيام الذى حكى عنه فيتز چيرالد والذى تنسب إليه بعض الرباعيات المزيفة. وحينما أقول بهذا الشبه لا أقلل من قدر أبيقور، ولا أرفع من شأن الخيام، ولا أتناقض مع نفسى، وذلك لأن الرباعيات جميعها فيها فى الواقع من «عمر الخيام» اثنان، بل ثلاثة، فهناك «الخيام الحقيقى» – وهناك خيام آخر يناقضه: **الخيام النقيض** – وهناك أيضا صورة خيامية هزلية ليست من «الخيام الحقيقى» ولا من «الخيام النقيض»، أقواله فيها غثة، وشعره ركيك. وكأنى بالرباعيات – إذا قلنا إنها لشاعر واحد – فإنما هو شاعر يعانى الانفصام، وكأنه الصورة النموذجية لمرض **ازدواج الشخصية** من أمراض الطب النفسى – وكأنه **حواء ذات الوجوه المتعددة**، والتى تظهر مرة، كما تقول الرواية، فى صورة **حواء البيضاء**، ثم تظهر أخرى فى صورة

حواء السوداء، ثم ثالثة فى صورة لا هى من هذه، ولا من تلك.

وأبيقور الذى يشبه «الخيام النقيض» كان يقول بما قال هذا «النقيض»، لدرجة أنى أكاد أجزم أن قارض الرباعيات المنحولة يدرى تماما عن مذهب الأبيقورية الذى كان معروفاً لدى المسلمين، وكان محط عنايه الباطنية بالذات، وهو الذى استقرأه القفطى فى الرباعيات المنحولة فقال عن الخيام إنه كان «يَعْلَم عِلْم اليونان»، يعنى أن هذا الخيام لابد أن يكون أبيقورى فعلا.

* **وأبيقور** يقول إن أنواع العلوم لا نفع فيها للإنسان لأنها لا تمنحه السعادة، وكذلك الفلسفة. والخيام قد شكّ فى جدوى العلم والمعرفة والفلسفة والحكمة والمنطق والقياس، وتحسّر على نفسه أنْ حان حيْنه ولم يتح لفكره أن يحل لغز الوجود، ويقول إنه متحير بين شتّى الفِكَر، وأنه جاهل بل «حمار»، وأن قضيته ليست مسأله قِدَم العالم أو حداثته، والدين إطلاقا لا يهمه، وشيوخ الدين ربما أضلّ منه.

* **وأبيقور** يرى أن العناية الإلهية وَهْم من الأوهام، فأين هى هذه العناية الإلهية فى عالم يحظى من الشر بنصيب أكبر آلاف المرات من نصيبه من الخير؟ ومصير الخير فيه أسوأ بكثير من مصير الشر؟ وأين هى هذه العناية الإلهية فى عالم لا يصلح إلا النزر اليسيرمنه لسكنى الإنسان؟ وأين هذه العناية التى كانت تنبغى للإنسان وقد خُلق فى الدنيا أعزل من كل سلاح، بل إنه الحيوان الأكثر حرماناً من كل سلاح؟ وكيف تكون هناك عناية إلهية والمعنى الذى لابد أن تنصرف إليه هو أن يكون الله مهموما بأحوال البشر، وأنه يتأثر لهم، ولو فعل فلن يتفق ذلك مع السعادة التى تليق به تعالى، لأنه سيتكدر لما يحيق بالإنسان وبما فى العالم من شرور؟

وهذا **الخيام النقيض** يرى نفس الرأى ولا يجد أن الله يولى الكون العناية الواجبة، ويقول لو آل إليه أمر الوجود فسيخلقه خلقاً جديداً، وسيجعله وجوداً جديراً بالأحرار وليس وجود «عبيد».

* **وأبيقور** قيل فيه إنه قد اضطر إلى مسايرة المعتقدات الشعبية فى الله مخافة أن تنقلب الجماهير عليه. وقيل إنه ساير الناس فى معتقدهم فى الله طالما أن إيمانهم بوجوده قد بلغ هذا الحد، فلا بد أن هناك شيئاً من الحقيقة فى هذا الإيمان، ولابد له أن يتعامل مع هذا الاعتقاد واقعياً طالما هو فى خاطر الناس.

والخيام النقيض تحدث فى وجود الله كقضية مُسلَّم بها غير قابلة للنقاش لأنها معتقد شعبى. بل إنه خشى على نفسه حينما بدأ يلمز الإلهيات، فصرّح بالايمان، وسافر إلى الحج «متاقاة» كما يقول القفطى.

* **وأبيقور** من وجهة نظر أخرى دعته إلى الإقرار بوجود الله نظرة جمالية أخلاقية، فقد وجد أن فكره الألوهية تجسيم لصورة مثالية عليا لدى الإنسان، فلكى يتمثل الإنسان مَثَلاً أعلى للفضيلة وللسعادة فعليه أن يستقر فى وجدانه الإيمان بالله كصورة عليا للفضيلة والجمال، إلا أن هذه الصورة لله هى صورة من امتثال الإنسان وليست من الواقع، قد صنعتها أمانيه وآماله، ولأنها من امتثاله فقد جاءت صورة إنسية أى على منوال الإنسان. ولأن الانسان أجمل وأكمل الكائنات، فالصورة عن الله جاءت أجمل الصور وأكملها وأجلّها. وهى صورة فيها مع ذلك كل صفات الإنسان إلا الشقاء والتغّير والفساد والفناء. والسعادة الإلهية هى نوع من الطمأنينة السلبية تمثل المَثل الأعلى للأخلاق الأبيقورية، ولهذا نجد أن الله عند أبيقور لا ينفعل للإنسان وآلامه، ومن ثم أسقط الأبيقوريون قيمة الصلاة لله لأنه لا يجدى معه دعاء.

وكذلك **الخيام النقيض**، فهو ينعى على الله أنه لا يسارع لنجدة المظلوم والملهوف، وأن السماء صمّاء، وأنه لم يخلقه على الاختيار وأنه ليس ربّ اختيار، والوجود الذى صنعه لم يصنعه على الاختيار. ومع ذلك فإن فكرة الله لا تخلو من وجاهة، وهى تصور لما كان يتمناه الإنسان لنفسه. والله لا يخلو من جمال، والطبيعة هى مَجْلى هذا الجمال، وفكرة الله فيها التفسير لوجود الجمال فى الكون.

* **وأبيقور** يقول إن الأصل فى المجتمع هو الفرد، والمقياس الأخلاقى على ذلك ينبغى أن يكون هو المقياس الفردى. **والخيام النقيض** الذى وصفه القفطى من الرباعيات المزيفة «سئ الخُلُق» ويفسر ذلك بأنه يضيق بالخَلْق ويعتزل الناس.

* **وأبيقور والخيام النقيض**: كلاهما يرى الخير فى اللذة ومفارقة الألم. وكلاهما لا ينظر إلى اللذه باعتبارها الحسى، ويفاضل بين اللذات والآلام. ويجعل بعض الآلام أفضل من بعض اللذات، لأن احتمال هذه الآلام قد يؤدى إلى لذة أكبر، أو لأن اجتناب هذه اللذات قد يؤدى إلى تجنب آلام أكبر. وكلاهما يجعل المقام الأول للذّات الإيجابية على السلبية، ويجعل أساس الأخلاق تحصيل اللذه وتجنب الألم، ويسخر من الواهمين الذين يقولون بالخير للخير

أو الفضيلة للفضيلة بصرف النظر عماً فيهما من ألم ولذة.

* ويبدو **أبيقور والخيام النقيض** وكأنهما يقولان أن بعض اللذات ضرورية وخير، وبعضها ضرورية وليست خيراً، وبعضها غير ضرورى وليست خيراً. ومن الأولى ما يحتاجه الإنسان لطعامه وشرابه ولباسه أو ما يسمى «الرزق»، ومن الثانية ما تهواه النفس كالشِعْر والأدب والفلسفة، ومن الثالثة الوساوس والشهوات الردّية.

* **والحكيم عند أبيقور** يتعلق بالأولى، ويميل إلى الثانية، وينكر الثالثة. **والحكيم عند الخيام النقيض** هو الذى يميل إلى الثانية ويأخذ بالأولى بقدر مقدور، ولايتبع الثالثة. وذلك هو الفارق الجوهرى بين **أبيقور والخيام المُتَوهّم أو النقيض** وهو فارق فى سُلّم اللذات عند كل منهما.

وكما نرى فإن هذا **الخيام المتوهّم أو النقيض**، فيلسوف، وله منهج وفكر، وفِكْرُه مؤسسٌ على مذهب من أكبر المذاهب الفلسفية الغربية– المذهب الأبيقورى. وهذا نفسه هو السبب الذى أعجب فيه فيتزجيرالد، وهو كل ما رآه فى الرباعيات بقضّها وقضيضها، وصادقها وزيفها وصحيحها ومنحولها، فلم يفهم منها إلا هذا الخيام، والتقطت بصيرته «الغربية» منها جوانبها الأبيقورية دون غيرها.

والذين حاروا فى تفسير إقبال الغرب على الرباعيات لم يدركوا لأول وهلة هذا السر، ولم يستوعبوا ما فى الرباعيات المنحولة على الخيام من فلسفة هى هذه الأبيقورية – فلسفة كاملة متكاملة وليس مجرد اتجاه أو منحى عادى.

والأبيقورية هى بشارة هذه الرباعيات، ولعل ما فيها من «عظمة مناسبة للبعض» هى أنها صورة شعرية لمذهب فلسفى انتشر أيّما انتشار – هنا وهناك – ودعوة لأسلوب فى الحياة يعجب الكثيرين، فى عصور لا تعدم أن تجد فيها من يأخذ الأمور هذا المأخذ الهين اللين. وليس بغريب أن يكون أكثر الداعين للأبيقورية كفلسفة وطريقة فى السلوك، هم أهل الأدب والنقاد الذين موضوعهم الإنسانيات، لتقارب فى الميول والأفهام. وكان منطقياً إذن أن يروّج هؤلاء للرباعيات المزيفة المنحولة، وخاصة تلك التى رويت عن فيتز جيرالد. وإنه لشئ نو بال أن سيرة حياة هؤلاء المترجمين فى الغرب والشرق لا تخلو من كثير من التثريب. ويعرف المشتغلون بعلم النفس والطب النفسى ما يسمى الإسقاط النفسى وهى حيلة نفسانية يراد بهاأن نخرج ما فى نفوسنا ولكننا ننسبه لآخرين حتى لا يقع علينا الملام، وكأنى بهؤلاء الذين

ترجموا لعمر الخيام النقيض، يريدون بترجماتهم أن يعبّرواعن أنفسهم ويقولوا على لسان الخيام مالم يستطيعوا أن ينسبوه خالصاً لأنفسهم. وقديما قيل ناقل الكفر ليس بكافر، غير أنى إن كنت قد أوافق على هذه المقولة فى أى مجال، لا أقّر بها فى الشعر، لأنه من الوجدانيات، أرفع ما يمكن أن يصدر من «الكلام الإنسانى». وهو التزام، وكذلك هو دعوة أخلاقية، وكل دعوة هى سياسة، وخطورة الشعر أنه يمكن أن يبلغ الغاية فى التأثير فى السامع والقارئ، وأن يصوغ الأفراد والناس صياغة قد تنحرف بالفرد وبالأمة أو قد تعلو بهما!....

*****

«نماذج من الشعر الأبيقورى فى الرباعيات»

* فى مذهب اللذة (الهنا):

يا قلبُ إنْ يمنحك ذا الدهر الأسى
وسيفجعنك باغتيال حياتكا
فاغنم بهذا الروض أوقات الهنا
قبل امتزاج نباته برفاتكا

*****

* فى السرور:

قم وَدَعْ هَمّ عالَمٍ سوف يفنى
واغتنم لحظة السرور لَدَيْكا
إن يكن فى الزمان أدنى وفاء
لم تصل نوْبةُ الهناء إلَيْكا

*****

* فى طريقة علاج الهمّ:

لا تَدَع الهَمّ يعتريك ولا
يَضيق بك العيش واطرح كمَدَك
ولازم الروْض والمياه وَطِبْ
من قبل أن يعصر الثرى جسدك

*****

* فى الفناء وراحة البال:

خيّام طِبْ إنْ نلتَ نشوة قرْقفٍ
وحَبَاك وردىّ الخدود وصالا
إنْ كان عاقبة الوجود هى الفنا
فافرض فناك وعِشْ سعيداً بالا

*****

(٣)

تهمة الزندقة

الزندقة نسبة إلى كتاب الزند من كتب زرادشت، والزنديق هو المعتقد فى هذا الكتاب. والقول بأن الخيام زنديق يعنى أنه مجوسى كما يقول الإسلاميون، والمجوسية هم عبدة النار، وكان زرادشت قد اعتنق عبادة النار، وانتشرت بيوت النار فى كل أنحاء فارس. والزرنشتية أو المجوسية أو المازدية أو المزدكية كما تسمى أحيانا، ديانة فارسية تنسب الى زرادشت، وكان ظهوره فى القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد فى بعض الآراء، وفى البعض الآخر كان فى القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد، وكانت ولادته بأذربيجان، وانتقل إلى فلسطين كما تقول الرواية، واستمع إلى أنبياء بنى اسرائيل من تلاميذ إرميا النبى، ولم تطمئن نفسه لليهودية، فرجع إلى بلده واعتنق دياناتها. وقيل فى شأنه أنه كان كالمسيح، فالله قد مازج روحه بلبن بقرة شربه أبو زرادشت فتخلقت منه نطفته فى رحم أمه، وقصدها الشيطان ليفسدها، فسمعت أمه هاتفا، ربما كان وحياً، يعدها بتخليصه من كل فساد. وعندما وُلِدَ تكلم فى المهد وسمعه الحاضرون. ولما بلغ الثلاثين تنبأ ونُسبت إليه خوارق، فهو يحيى الموتى ويبرئ الأعمى، وقرأ على الناس من كتاب يوحى إليه به، مؤداه أن العالم روحانى وجسمانى، والخلْق إلى التقدير والفعل، والوجود إلى النور والظلمة، والموجودات من هذا أو من ذاك، يعنى من الخير أو الشر، والكون كله مسرح صراع بين القوتين، والمآل فى هذا الصراع فى آخر الزمان لانتصار إله النور أهورا مازدا (ومنه كان اسم المازدية أو المزدكية).

ولماّ تحدّث الإسلاميون فى الزرادشتية صوّروها فى صورة الملّة التى تدعو إلى التوحيد كدأبهم حتى عندما تحدثوا عن الفلسفة اليونانية، ومن ثم ظن المستشرقون أن هناك تشابهاً بينها وبين الإسلام، أى أن الإسلام استقى منها. والحقيقة أنها أشبه بالمسيحية، وكلاهما واضح فيهما الغنوص.

وقضى الإسلام على الزردشتية لماّ دخل فارس، لولا بقايا من الزردشتيين فرّوا إلى الهند ويدعوْن فيها البارسيين. وكان للزردشتية تأثير كبير على بعض طوائف الباطنية من قرامطة وحشاشين وغيرهم، واعترفت بها البهائية.

والزندقة اتُهم بها الخيام، وتفيد معنى الارتداد عن الإسلام إلى المجوسية. والبعض من الفرس كانوا يرتدون فعلا نكايةً فى المسلمين. وكانت الزندقة من الدعاوى العنصرية التى أساسها الشعوبية، بتأثير اعتقاد الفُرس أنهم أحقّ من العرب وأولى بكل هذا المُلك، لرسوخ قدمهم فى الحضارة أكثر من العرب.

ومن الزنادقة قوم دعوا إلى طلب الشهوات واتبّاع اللذّات، وكان اسمهم بالفارسية الخرّمية، من الخرّم وهو المستلذ المستطاب كما أسلفنا فى شرح الباطنية، وكان هذا لقب المزدكية أو الزردشتية من أهل الإباحة من المجوس الذين نبغوا فى أيام قباذ وأباحوا النساء حتى المحارم وأحلّوا كل محظور وكانوا يسمون خرمدينية.

ولم يُعرف عن الخيام الحقيقى أنه كان معادياً للجنس العربى، ولم يذكر له عيب واحد من ذلك فى مجالساته التى كانت تدار مع العلماء والفلاسفة بالعربية. وكان لسانه العربى مبيناً كما سندرس ذلك فى شعره العربى، وكما اتضح لنا من فحص رسالاته الفلسفية الأربع. وكان متديناً شديد التدين. وحتى القفطى فى تحامله عليه لم يقل إنه مجوسى، وإنما أخذ عليه علمه اليونانى وفلسفته فى الإلهيات ويروى الشهرزورى فى نزهة الأرواح (نحو ٦١١ هـ) أن الإمام عمر دخل يوماً على شهاب الإسلام الوزير عبد الرازق، وكان عنده إمام القُرّاء أبو الحسن الغزالى، وكانا يتكلمان فى اختلاف القُرّاء فى آية، فقال الوزير «على الخبير سقطنا»، وسأل الإمام عمر عن النقطة الخلافية، فأجاب ذاكراً اختلاف القُرّاء وعلل كلام كل واحد منهم، والشواذ وعللها، وفضّل وجهاً واحداً من الوجوه على سائرها، فقال الغزالى كثّر الله فى العلماء من أمثالك. وقال اجعلنى من بعض أهلك وارض عنى!! ما ظننت أحداً من القُرّاء فى الدنيا يحفظ الذى سمعته منك ويعرفه، فضلاً عن واحد من الحكماء!!!

هذه هى شهادة الغزالى (القرّاء) أوردها الشهرزورى، يؤكد أن الخيام هو العالم النحرير، واللغوى الضليع، والفقيه المتمكّن، فكيف يكون مَنْ هذه مكانته وخُلُقُه ودينُه حتى ليتمنى الغزالى أن يجعله من أهله – كيف يكون زنديقا؟

وإنْ صَدقت هذه الصفة على صاحب الرباعيات المزيفة فهو هذا الخيام الآخر المزيف أو

النقيض الذى يقول:

يدٌ لى فى جامٍ، وأخرى بمصحف
وطوْراً أنا الجانى، وطوْراً أنا العَفُّ
أعيش ومالى تحت ذا الأفق مبدأ
فلا مسلمٌ محضٌ ولا كافرٌ صِرْفُ

*****

(٦)

تهمة اللاأدرية

تتناقض هذه التهمة مع القول بأن الخيام كان علاّمة فى الرياضيات، فكيف يكون كذلك وهو لا يدرى؟ وفى كتابه الجبر والمقابلة يقول: كنتُ ومازال شديد الحرص على تحقيق جميع أصناف المسائل الرياضية وتمييز الممكن من الممتنع من أنواع كل صنف ببراهين، لمعرفتى بأن الحاجة إليها فى مشكلات المسائل ماسة جدا. ولم أتمكن من التجرد لتحصيل هذا الخير والمواظبة على الفكر فيه لاعتراض ما كان يعوقنى عنه من صروف الزمان، فإنّا قد منينا بانقراض أهل العلم إلاّ عصابة قليلى العدد، كثيرى المحن، همّهم افتراض غفلات الزمان، ليتفرغوا فى أثنائها إلى تحقيق واتقان علم. وأكثر المتشبهين بالعلماء فى زماننا هذا يلُبسون الحق بالباطل، ولا يتجاوزون حد التدليس والترائى بالمعرفة، ولا ينفقون القدر الذى يعرفونه من العلوم إلاّ فى أغراض بدنية خسيسة. وإنْ شاهدوا إنساناً معنياً بطلب الحق وإيثار الصدق، مجتهداً فى رفض الباطل والزور وترك المراياة والخداع، استحمقوه وسخروا منه».

وكأن الخيام فى انتقاده للعصر والفلاسفة، وحتى لأهل العلم، يعيب عليهم أنهم لا يأخذون بالمنهج العلمى. وكان نبوغ الخيام فى الرياضيات بخاصة، وعرفه أهل عصره كعالم رياضى ولم يعرفوه كشاعر. وكان تعاطيه للفلسفة ثانوياً إلى جوار انشغاله بالرياضيات. والمنهج الرياضى من أعسر المناهج وأدقها. والممتهن للرياضيات ينطبع بهذا المنهج فى تفكيره ويجعله أسلوب حياته. والمسلمون فى عصر الخيام – القرن الرابع الهجرى – كانوا قد ترجموا الرياضيات اليونانية – أبولونيوس وأرخميدس وإقليدس وبطليموس. والخيام كعالم رياضى – بل أكبر عالم فى زمنه – كان على قمة هذه الحضارة العلمية، وقد امتدحه جورج سارتون وجيبون وبروكلمان وعشرات من مؤرخى العلوم وأساتذتها فى الجامعات الأوروبية والأمريكية،

واعتبروا كتاباته ثورة رياضية، وليس أقل من أن يكون من له هذه المكانة وهذه المعرفة الموسوعية مفكراً على قدر معين من اليقين فيما يعلمه ويقوم بتدريسه، والمنطق الرياضى يتعارض مع اللاأدرية.

واللاأدرية مصطلح سوفسطائى قديم، وكان استخدامه فى الفلسفة أساسا، وفى مجال الإلهيات خصوصا، ولم يبدأ استخدامه فى العلوم إلا مؤخرا، وقيل إن **توماس هكسلى** العالم الإنجليزى (١٨٢٥ - ١٨٩٥) كان أول من طرحه للاستخدام من العلماء.

واللاأدرى فى الإلهيات هو الذى يعلن عن عجزه عن إثبات وجود الله، وكذلك عجزه أن ينكر وجوده، إقراراً منه بأن هذه المسألة مما لا يقوى على مناقشتها عقله وتتجاوز قدراته. وقد يؤسس اللاأدرى على هذا العجز أن الأولَى به الأخذ بالإثبات على الإنكار.

وقد سبق أن ناقشنا فى الفصول السابقة التى تناولنا فيها رسالات الخيام الفلسفيةحقيقة إيمانه بالله، وأنه كفليسوف ورياضى يأخذ ببرهان العلة الأولى الذى قال به أرسطو وابن سينا وغيرهما فى إثبات واجب الوجود، أى الله، إلا أنه وجدانيا ظل يستشعر عجز العقل عن الوفاء بمتطلبات هذه المهمة الكبرى، بل أكبر المهام وأخطر قضايا الفلسفة. وهو يقول فى إحدى رباعياته ما معناه إن عقلى ليقصر عن إثبات وجودك يارب، وأنه إزاء ذلك لا أملك إلاّ أن أدعوك لتهدينى فأعرف منك ما أجهل عنك، ولو أنى أشك أن عقلى يمكنه أن يستوعب عنك، ولست أحسب أنى أستطيع أن أعرف ذاتك، فما يعرف ذاتك فى الحقيقة إلاّ ذاتك!

ومع ذلك فإن الخيام يعرف أنه لو قطع بأنه لا يدرى عن الله لناقض نفسه، إذ كيف يقطع فيما لا يدرى! ومن ثم فهو يؤمن، وكأنه يقول لأنى لم أعقل فقد آمنت. وإيمانه ليس الإيمان الفطرى الذى للعوام، وليس الإيمان الواجب الذى لا برهان له عليه، ولكنه **مطلق الإيمان**، والفرق بينه وبين **الإيمان المطلق**، أن الثانى عن تصديق وليس عن بيّنه، وهو إيمان الصدّيقين ومنهم أبو بكر الصدّيق، ومن صفاته أنه لا يزيد ولا ينقص، والأول يطلق على الإيمان الناقص والكامل، ولذلك نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم الإيمان المطلق عن الزانى وشارب الخمر والسارق، ولم ينف عنهم مطلق الإيمان.

وإيمان الخيام إذن هو مطلق الإيمان، وهو إيمان يزيد وينقص، ومن أجل ذلك يستشعر القلق، ويعيش الخوف، وتشمله من آن لآخر الرعدة التى يحكى عنها كير كجارد الفيلسوف

الوجودى فيصرخ عذاباته فى رباعيات شعرية، ويستنزف توتره فيها.

وإيمانه ليس الإيمان المطبوع كما عند الملائكة، ولا الإيمان المعصوم كما عند الأنبياء، ولا الإيمان المقبول كما عند بسطاء الناس، ولا هو الإيمان الموقوف كإيمان المبتدعين، ولا الإيمان المردود كإيمان المنافقين، ولكنه **إيمان وجودى**، قضية حياة أو موت يعيشها بكامل وعيه ويهتم بها وجدانه، فمرة يشك، ومرة يتيقن، كإيمان النبى إبراهيم عليه السلام إذ قال ربى أرنى كيف تحيى الموتى، قال أَوَلَمْ تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبى!!

وإيمانه فيه البصر والبصيرة، والعقل والقلب. وكان الخيام يقول: من الموجودات ما هو خال عن اللّمية وهو الأشياء الواجبة التى لا يمكن أن تكون موجودة، وإنْ فُرضت غير موجودة لزم منه محال، والشئ الذى يكون بالحقيقة على هذه الصفة لا يكون له سبب ولمّية فيكون إذن واجب الوجود بذاته، وهو الواحد الحى القّيوم، الذى عنه الوجود لكل موجود، وبجوده وحِكمته فاض كل خير وعدل، جلّ جلاله وتقّدست أسماؤه. - ويقول الخيام أيضا: وقد تبين فى العلم الإلهى أن السبب الذى لا سبب له هو واجب الوجود بذاته، واحد من جميع جهاته، ويرئ من جميع أنحاء النقص، وإليه تنتهى جميع الأشياء، وعنه توجد. - ويقول: العناية السرمدية الحقة توجهت نحو الخير، إلاّ أن هذا الخير لا يمكن أن يكون مبرءاً خالياً من الشر والعدم، فليس الشر منسوباً إليه إلا بالعرض، وليس الكلام هـهنا بالعرض بل بالذات. وإنى أوصى كل من أعرفه من الحكماء بتقديس ذلك الجناب عن الظلم والشر. وهنا من التفصيل والتحصيل ما لا تفيه العبارة، ولا يقدر المخبر على الإخبار به لقصور البيان عنه، والحدس المصيب ينال من ذلك ما تقنع به النفس الكاملة وتذوق به اللذة العقلية القصوى.

وكأنى بالخيام يقول **بفلسفتين أو نمطين من التفكير**: أحدهما عقلى نقدى يقوم على التحليل المنطقى، والآخر يجافى التحليل ويسعى لتحصيل النتائج العامة بالحدس المباشر الشخصى وهذا النمط الثانى هو المعروف بالحكمة والذى يسمى **الفلسفة التأملية**.

ومانخلص إليه من أقوال الخيام السابقة فى الرسالات أن الفلسفة هى التشبه بالإله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية، كما أمر الصادق صلّى الله عليه وسلم فى قوله: تخلّقوا بأخلاق الله. أى تشبّهوا به فى الإحاطة بالمعلومات والتجرد عن الجسمانيات.

والخيام فى الرسالات تحليلى منطقى، وفى الرباعيات تأملى حدسى.

ومنطقه فى الرباعيات ليس المنطق اللاأدرى ولكنه **المنطق الوجودى**: الشعور بالوجود،

ليس عن طريق الفكر المجرد، لأن الفكر المجرد هو انتزاع من تيار الوجود الحى بعيداً عن الحياة المتوترة. وما ينشده الخيام هو استبطان مباشر من ذاته لنفسه، يمسك به تيار الحياة، وينشب به أظفاره فى الواقع، والذات فيه تريد أن تعرف، وأداتها الوجدان وليس العقل، ومقولات الوجدان تتراوح بين النقيضين، ومنطقه ديالكتيكى وجودى، وانسياقه وجودى يصدر عن العاطفة والإرادة – وهو توتر بين التألم والسرور، والحب والكراهية، والقلق والطمأنينة، والخطر والأمان!!

وهذا هو الخيام الحقيقى الذى نعرفه من الرباعيات، والذى يتجاوز اللاأدرية، والذى قلنا عنه إنه فليسوف وجودى – وربما كان أول فليسوف وجودى فى الإسلام.

* يقول الخيام فى الحزن والسرور:

من تحرى حقيقة الدهر أضحى
عنده الحزن والسرور سواء
إن يكن حادث الزمان سيفنى
فليكن كله أسى أو هناء

*****

* وفى الضحك يوما والبكاء حولا:

قالت الوردة لا خدّ كخدّى فى البهاء
فإلى م الظلم ممن يبتغى عصراً لمائى
فأجاب البلبل الغرِيّد فى لحن الغناء
من يكن يضحكُ يوما يقضِ حولاً بالبكاء

*****

* وهو لا يدرى متى انتهاء العالم:

ليس يدرى بمنطق وقياس
أى وقت دارت به الزرقاء
أو متى تصبح السماء خرابا
فتداعت وانهدّ منها البناء

*****

«ويقول مَنْ وأين ومتى لا أدرى:

لا تحسبنّى جئت من نفسى ولا
قطعت وحدى ذا الطريق المُعْنتا
إن يـكُ مـنه جوهـرى ومَنشئى
فـمَـن أنـا وأين كنتُ ومتى؟

*****

(٧)
تهمة الدهرية

قيل فى الخيام إنه دهرى، والدهرية أصلا من ديانات فارس، وفرقة من الباطنية، أطلقوا عليها اسم **الزروانية**، نسبة إلى **زرفان أو زروان** بالفارسية بمعنى الدهر.

والدهرية يقولون بِقدَم الدهر واستناد الحوادث إليه كما أخبر الله تعالى عنهم «وقالوا ما هى إلا حياتنا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر» (الجاثية ٢٣) ويجحدون الصانع المدبر العالم القادر، ويزعمون أن العالَم لم يزل موجودا كذلك بنفسه لا بصانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، كذلك كان، وكذلك يكون أبدا.

والدهرية هم **الزنادقة** ينكرون النبوة والبعث والحساب، ويردّون كل شئ إلى فعل الأفلاك. ولا يعرفون الخير والشر، وإنما اللذة والمنفعة.

والطبيعيون الدهرية بخلاف **فلاسفة الدهريين**، والأولون يقولون بالمحسوس وينكرون المعقول، بينما يقول الآخرون بالمحسوس والمعقول معا وينكرون الحدود والأحكام ، وفى كتاب **الرد على الدهريين لجمال الدين الأفغانى** الذى ترجمه الشيخ الإمام محمد عبده من الفارسية إلى العربية – لا يميز بين الطبيعيين الدهريين وفلاسفة الدهرية، ويتحدث عنهم مرة باعتبارهم طبيعيين ومرة يقول إنهم الدهرية.

وصارت الدهرية دينا صريحا فى عهد يزدجرد الثانى فى الدولة الساسانية، وذهبوا إلى ترك العبادات لأنها لا تفيد، وإنما الدهر بما يقتضيه مجبول من حيث الفطرة على ما هو فيه، فما ثمّ إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، وسماء تقلع، وسحاب تقشع، وهواء تقمع، ويسمون **بالملاحدة** أيضا.

*****

وفى كتاب مرصاد العباد الذى يعلق فيه نجم الدين أبو بكر على كتاب جهارمقاله أن الفيلسوف الدهرى الطبيعى (يقصد الخيّام) قد تاه فى بيداء الضلال بقوله هذه الرباعية:

ليس لذا العالم ابتداءٌ
يبدو ولا غايةٌ وَحَدُّ
ولم أجد من يقول حقاً
من أين جئنا وأين نغدو

ولو قارنا ما فى هذه الرباعية بما فى الرسالة الفلسفية الأولى للخيام نجده يقرر فى الرسالة:

١ - أن الله واجب الوجود تنتهى إليه علل وأسباب جميع الموجودات.

٢ - وأن العالم بما هو كذلك مُحْدَث، والله تعالى مُحدِث.

٣ - وأنه تعالى واجب الوجود لا يأتيه النقص ولا الحدوث من أى جهة من جهاته.

٤ - وأن الحق قد جعل التكليف للأشخاص الإنسانية إلى كمالاتهم المُسعدة لهم فى حياتهم الأولى والأخرى - أى أن الخيام يقول بحياة أخرى بعد هذه الحياة.

٥ - ومعنى ذلك أيضا أنه يؤمن بالبعث.

٦ - ويقول إن الحساب فى الحياة الأخرى يرد العباد فى الحياة الأولى عن الظلم والجور وارتكاب القبائح واكتساب النقائص والانهماك فى متابعة القُوَى البدنية المانعة إياهم عن اتباع القوة العقلية.

ومن ذلك ترى أن الرسالة الأولى المُعَنْوَنة حكمة الخَلْق والتكليف لا تستقيم معها هذه الرباعيات إطلاقاً مما يقضى بأنها من الرباعيات الموضوعة، وما أكثرها عند الخيام، وعند من يحفظون له وهى ليست له. وكما يقول مترجمه عبد الحق فاضل - ما من محقق يسعه أن يجزم بأن معشار تلك الرباعيات التى تعد بالألوف والتى تكتظ بها النسخ المُختلفة هى للخيام حقاً.

*****

(٨)
تهمة التناسخية

يذكر **تاريخ ألفى لابن نصر الله التتوى السندى** أن عمر الخيام كان على مذهب التناسخ، فمماً يُروىَ عنه أنه لما كان يمشى فى باحة مدرسة قديمة فى نيسابور مع جمع الطلبة، رأى حماراً بين الحمير التى كانت تنقل الطوب اللَّبِن لترميم المدرسة، فحرن الحمار عن الدخول، وتبّسم الخيام واقترب منه، وأنشد فى أذنه رباعيته التى تعنى: أيها الذى ذهب ثم عاد وقد صار حيواناً، والذى تاه اسمه من بين الأسماء، وتجمعت أظافره فصارت حافراً، وظهرت لحيته من جانب عَجُزه فصارت ذيلاً. وعندما سمع الحمار ذلك دخل، فسألوا الخيام عن ذلك فقال: إن الروح التى تعلّقت بجسم هذا الحمار كانت فى بدن مدرس بهذه المدرسة، ولهذا كان يستحى أن يدخل، ولكنه لماً علم أن أصحابه عرفوه دخل مضطراً!

والتناسخ الذى ينسبه الرواة إلى الخيام يتناقض مع اعتقاده فى البعث، فالمعروف أن التناسخ لم تقل به إلا طوائف من الشيعة كالسبأية والخطابية، ومذاهب أخرى هندية وفلسفية يونانية قديمة، وأنكرته الشيعة الاسماعيلية. ولم يكن الخيام على أىٍ من هذه المذاهب أو الفرق. والغالب أن انتقال التناسخ إلى المسلمين من خلال الثنوية الإيرانية، ويقول عنهم الشهرستانى إنهم كانوا يقولون بتناسخ الأرواح فى الأحياء وانتقالها من شخص إلى شخص، فما يلقاه من الراحة أو التعب أو الدعة أو النصب إنما يترتب على ما أسلفه فى حياته وهو فى بدن آخر جزاءً على ذلك. والإنسان أبداً فى أحد أمرين، إمّا فى فعل، وإمّا فى جزاء، وما هو فيه فإمّا مكافأة على عمل قدّمه، وإمّا على عمل ينتظر المكافأة عليه. وكان التناسخ عند السبأية يعنى انتقال الأرواح المطيعة إلى الأبدان الطاهرة والصور الحسان، وانتقال الأرواح الشريرة العاصية إلى الأبدان النجسة والصور المذمومة كالكلاب والقردة والخنازير والحمير كما فى الحكاية السابقة عن الخيام. وأما الخطابية فزعموا أن أرواح من جحد أمرهم تجرى فى كل الأشياء وكل ذى روح، وفى المأكولات والمشروبات والملبوسات والمنكوحات، وفى كل رطب ويابس. ويبدو أن القائلين بالتناسخ قالوا أيضا بقدم العالم، وخالفهم الدهرية، لأن معنى التناسخ أن الأنفس لها وجود قبل أشخاصها، بينما الدهرية يقولون إن وجودها بوجود أشخاصها. وكان إنكار الاسماعيلية للتناسخ انطلاقا من إيمانهم بالبعث والحساب والجنه والنار.

وعلى ذلك، وبحسب معتقدات الخيام التى يطرحها فى **الرسائل الفلسفية** فإنه لا يمكن

أن تصدر عنه حكاية كهذه فى التناسخ، وقد نفينا عنه أن يكون شيعياً بالنظر إلى أصوله السُنيّة. ولا تعدو هذه الحكاية إلا أن تكون من الافتراءات الكثيرة التى نُسبت إليه، والتزويرات التى انتُحلت عليه، وليس فى كتاباته النثرية ولا فى رباعياته أياً كانت ما ينبئ أنه كان على الدعوة التناسخية.

ومع ذلك فمن الممكن تصديق هذه الرواية باعتبارها مشهداً تمثيلياً فكاهياً المقصود به أن يُسَرّى الخيام عن تلاميذه فى موقف كان لا أقل فيه من التعامل معه بروح الفكاهة، ولنا أن نتصور تلاميذ الخيام وهم مجتمعون حوله، والحمار غير بعيد عنهم يحاول أصحابه دفعه بحمولة الطوب اللبن، والحمار رافض، وهو مشهد لو طال فإنه لابد أن يستدعى منهم الضحك من ناحية، ولابد فيه من التدخل لإنهائه من ناحية أخرى كى يكون انتباه التلاميذ مع الخيام وليس مع الحمار الناشز، فكان ما كان من تدخل الخيام وانبهار التلاميذ بالنتيجة، وليس أقل من أن يكون التفسير الذى يطرحه لسماع الحمار لما أسرّه فى أذنه منسجماً مع روح الموقف، فقال ما قال مستدعياً ضحكهم. فإنْ كان بعض المؤرخين قد أخذوا المسأله مأخذ الجد فذلك مرجعه إلى سوء النية المُبَيّت تجاه الخيام إسماً، وتجاه الإسلام والمسلمين فعلا، بتلطيخ سمعة الخيام وإلصاق التهمة تلو التهمة بكبار مفكرى الإسلام والعقول المحسوبة على المسلمين، حطاً من قدر الثقافة الإسلامية، وتهويناً من مكانة هؤلاء العظماء فى تاريخ الفكر الإسلامى بل والإنسانى.

ثم إن هذه الحكاية الفكاهية بحساب أهل التحليل النفسى تضيف بعداً نفسياً مهماً إلى شخصية الخيام، وتتعارض مع قول البيهقى فى توصيف شخصه بأنه كان «سئ الخلق ضيق العطن»، مما سنتعرض له من بعد عند حديثنا عن شخصية الخيام فى فصول لاحقة.

*****